عروبة الجذور والفروع

• **الوجود العربي الكنعاني في فلسطين؛ والشام:**

قلت: «العربيّ الكنعاني»؛ لأن الكنعانيين عربٌ، لاشك في عروبتهم. ولو لم يكن لهم إلا اللسان العربي، لكفاهم في الانتساب إلى العرب أو الجنس العربي. وقد ثبت أن لسانهم عربي عتيق.

أو نقول: إنَّ عربيتنا اليوم، واللسان الكنعاني قبل آلاف السنين ترجع إلى جذر واحد، فالأخوة اللغوية ثابتة لاشكَّ فيها، فكيف إذا انضاف إلى اللسان اتحاد المكان، وهو المكان الذي اتُّفق على تسميته بجزيرة العرب؟.

ونظرية الهجرة من الجنوب إلى الشمال (الشام) تؤكّد عربيّتهم؛ لأن جميع الباحثين يقررون أن نجداً والحجاز واليمن هي جزيرة العرب، أو من جزيرة العرب...

ومنذ[1] بدأ المؤرخون العرب الكتابة عن الجذور التاريخيّة لأهل فلسطين العرب تتابعوا على القول بأن الكنعانيين أقدم شعب سكن أرض فلسطين من الجزيرة العربية، وقالوا: إن الإنسان الذي سكن فلسطين قبل الزمن التاريخي (3200 ق.م) هو عرق

---

(1) قلتُ: منذ بدأ.. إلخ: وقد بدأت البدايات المتعثرة بعد سنة 1967م، أما قبل ذلك، فقد اتخذت الأساليب الكتابية حول فلسطين، الاتجاه الخطابي، وإطلاق القنابل «العنترية»، والبكاء والعويل على ماحصل، والشكوى إلى هيئة الأمم.. وأبعد ما تناولته الدراسات الجادّة قصة فلسطين في القرن التاسع عشر، والقرن العشرين، والامتداد إلى الفتوحات الإسلاميّة، واهتم المؤلفون الفلسطينيون كثيراً بإبراز «جهاد» أهل فلسطين من 1917م حتى سنة 1948، وذلك جواباً عن اتهامات إخوانهم العرب لهم بالتقصير في الدفاع عن أرض فلسطين.. أما تاريخ فلسطين قبل الفتح الإسلامي، وهلم جرّا إلى قرون ما قبل الميلاد، فكان يأتي عرضاً في أسطر قليلة، بينما كان اليهود وأشياعهم التوراتيون من أهل أوروبة وأمريكا، يؤصلون تاريخ اليهودية في فلسطين بناء على أخبار التوراة، وبناء على التفسيرات الكاذبة التي استنبطوها من الآثار التي استولوا عليها.. فكانوا أساتذة للعرب في دراسة تاريخ العرب.

البحر الأبيض المتوسط . . دون تفصيلات عن مجتمعات في تلك المدّة، ما عدا تأويلات بنوها على اكتشاف بعض الجماجم، والهياكل العظمية.

والسبب في شُحّ المعلومات عن مُدَّة ما قبل التاريخ، واتساعها في مدة ما بَعْد التأريخ، هو اختراع الكتابة التي وفّرت المعلومات الأثرية للباحثين.

وشحّ المعلومات أو انعدامها، لا يكون سبباً في نفي الشيء، أو إثباته.

أريد أن أقول: إنَّ انعدام المعلومات عن زمن ما قبل التاريخ، لا يمنع من القول: إن الكنعانيين، هم تطور وامتداد لعصور ما قبل التاريخ، وخصوصاً أن المعلومات الأثرية ترجّح هذا الرأي وتدعمه.

فهم يقدرون زمن هجرة الكنعانيين في النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد.

ولكن الأثريين الذين أجروا تنقيبات في بعض المدن التي تحمل أسماء عربية كنعانية أصلية يرجعون تاريخ هذه المدن إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، وهذه المدن هي «أريحا، وبيت شان، ومجدّو، وجازر»:

ومدينة «أريحا»[1] بخاصة قد أرجعها الباحثون إلى الزمن الحجري الحديث، (8000ق.م)، ولذلك عدوها أقدم مدينة في العالم ما تزال باقية إلى اليوم.

وقد عثر المنقبون في أريحا على سور يحيط بها بُني من الحجارة على ارتفاع عشرة أمتار، وأقيم فيه برج مستدير قطره 13 متراً، يُصعد إليه بإحدى وعشرين درجة، وهذا السور والبرج أقدم بناء حجري عثر عليه العلماء حتى الآن، ويعود بناؤه إلى سنة (7000ق.م)، ويحيط بالسور خندق حُفر في الصخر على عمق مترين ونصف المتر واتساع ثمانية أمتار. وبناء السور وحفر الخندق والقيام بأعمال الريّ تدلّ

---

(1) أريحا: تقع في شمال البحر الميت، وعلى مسيرة خمسة أكيال منه، وفي الشمال الشرقي من القدس على بُعد 37 كيلاً، وتنخفض عن سطح البحر 276م. وأصل الكلمة من «يريحو» أي: مدينة القمر. و«يرح» في لغة جنوب الجزيرة العربية كانت تعني: «شهر»، و«قمر». وقد يكون معناها من الراحة والاطمئنان، أو الرائحة الطيبة.

على كثرة السكان، وعلى قوة أنظمتهم التي جعلتهم يقومون متعاونين متشاركين بأعمال لا تقوم بها إلا الحكومات.

وكان المعروف أنَّ الحضارة نشأت في العراق ثم في مصر، ولكن الحفريات الأثرية التي أُجريت في أريحا وجوارها برهنت على أن نشوء الزراعة وتدجين الحيوان والاستقرار ظهرت جميعها في أريحا قبل أن تظهر في العراق بأكثر من ألف سنة.

وتدلُّ الحفريات على أن صناعة الخزف اخترعت في أريحا، وذلك حوالي (5000ق.م)، ومن أريحا انتشرت صناعة الخزف في مختلف أنحاء فلسطين وسورية؛ حيث عثروا على الخزف المدهون أو الملون والمزخرف في بيسان، وقرب غزة وحماة وجرابلس[1].

وتوصل الباحثون أيضاً إلى أنَّ أقدم المعابد الكنعانية تقع في أريحا، وفي «مجدّو».

قال أمين الريحاني في كتابه «قلب لبنان»: «ما أجمع عليه المؤرخون والأثريون أن (الفينيقيين)[2] الكنعانيين مثل العرب (ساميون)، بل إنهم عرب الأصل، نزحوا من الشواطئ الغربية الشرقية على خليج العرب ومن البحرين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط في قديم الزمان. ويستنتج من درس الآثار التي وجدت في المقبرة القديمة في

---

(1) اكتشاف الخزف في أريحا، ومدن ساحلية ردٌّ على مَنْ جعل اكتشاف الخزف في المدن الفلسطينية دليلاً على هجرة الفلستيين من جزيرة كريت، وبهذا نقول: إن الخزف ربما نقل من فلسطين إلى كريت عن طريق الفينيقيين، أو اهتدوا إلى صنعته كما اهتدى الفلسطينيون، وكان التشابه لاتصال المنطقتين بالبحر المتوسط، والله أعلم.

(2) الفينيقيون: فرقة من العرب الكنعانيين، لسانهم عربيّ عتيق، وموطنهم الساحل الشامي من جزيرة العرب. ينسبون إلى «فينيقية» وهو ساحل لبنان المتضمن صور، وصيدا. وقد حذقوا الملاحة والتجارة، وجابوا البحار وبنوا المدن التجارية، ومنها: «قرطاج» في تونس. تأثر بهم اليونان فأخذوا حروف الهجاء منهم، وهي الحروف التي نستعملها اليوم، بنطقنا أو كأنه نُطقنا. يُقال: إن الإغريق اليونان هم الذين أعطوهم هذا الاسم، ويمكن اشتقاق اسمهم من العربية من فعل «فنق» الذي يفيد النعمة والثراء، وقد كانوا كذلك، والله أعلم.

البحرين أن هجرتهم كانت قبل عهد الشبه[1] (البرونز) في أواخر العهد الصواني يوم لم يكن الإنسان يُحسن شيئاً من الكتابة، إذْ لا كتابة البتة في مقابر البحرين الكنعانية».

وفي كلام الريحاني أمران:

أولهما: أن الفينيقيين عرب الأصل، وهذا مؤكد بالأدلة الثابتة: كون لسانهم عربياً عتيقاً، وكونهم هاجروا من شواطئ الخليج العربي.

ثاني الأمرين: كونهم هاجروا من مناطق شواطئ الخليج العربي، وهذه معلومة ظنيّة؛ لأنه قال: «من قديم الزمان»، وهي عبارة عامّة غير محددة. وقال: كانت هجرتهم قبل عهد البرونز؛ في عهد ما قبل التاريخ، وهذه أيضاً معلومة ظنيّة، الشكُّ فيها أقوى من اليقين.

وبرهن بعضهم على نظرية الهجرة باتفاق أسماء المدن، وتشابه المقابر في البحرين، ومواطن الفينيقيين في المهجر؛ فهناك مدينة «صور» على ساحل عُمان، ومدينة «جُبيل» في شرقي السعودية على الخليج..

قلت: إن التشابه في الأسماء والأعمال لا تعني دائماً التقليد، بل هو كما قال نُقّادُ الشعر العربي: من وقوع الحافر على الحافر، أو توارد الخواطر، وخصوصاً إذا كان الجنس الذي يسكن المنطقتين عروبياً، يتكلمون لغة واحدة، ويتشابهون في موطن السكنى على البحر.

وقد نجمع بين الهجرة والأصالة فنقول: إن الكنعانيين أصيلون متجذرون في بلاد الشام. وإن مجموعة من عرب ساحل الخليج هاجرت إلى بلاد الكنعانيين، ودخل الجزء في الكلّ، ثم اختارت هذه المجموعة مُدناً ساحلية على بحر الشام، بل أنشأتها؛ لأنها ذات خبرة في علوم البحار.

والخلاصة: أنَّ هناك أصلاً عربياً في فلسطين، عَمَرَ الأرض من أول يوم كان فيها الإنسان، وتطور هذا الإنسان وهو في مكانه حتى صار شعباً متميزاً له لغته

---

(1) الشَّبَه أو الشبهان: الكلمة العربية لـ«البرونز» هو النحاس يصبغ فيصفر، أو ضرب من النحاس يُلقى عليه دواء فيصفر؛ سمي به لأنه إذا فعل ذلك به أشبه الذهب بلونه. وقيل: هو النحاس إذا امُزج بالقصدير، فيصير قاسياً، ولذلك عدوه مرحلة تاريخيّة اهتدى إليها الإنسان في استعمال آلاته. والله أعلم.

وثقافته، ثم انضاف إليه قبائل من أطراف الجزيرة العربية. والشواهد المادية التي ذكرناها ترجح الأصولية المتجذرة.. كلُّ شعب من شعوب الجزيرة العربية نبت ونما في وطنه، ثم حصل التلاقي لأسباب الحياة، وليس هناك جزءٌ من الجزيرة العربية أولى من جزء للقول بأنه مهد العرب الأول، فكل الجزيرة جنوبها وشمالها، وشامها ويمنها مهد العرب. وتوحّدت لغتهم، أو توحدت جذورها، وخصائصها العامة، لما يكون بين الشعوب من لقاءات، واللغة الكنعانية كانت تعمُّ العراق والشام وبلاد مصر، وتوغلت إلى أفريقيا الشمالية، فلماذا لا تعمّ اليمن والحجاز، أو تنقل جذورها إلى كلِّ بقعة مسكونة في الجزيرة؟

لقد هاجر إبراهيم الخليل من «بابل» إلى الشام: واسم مدينته عربي؛ لأن بابل تعني: «باب إيل»؛ أي: «باب الله» وسكن فلسطين، واختلط بشعبها، فبأي لغة كلمهم؟ إنها اللغة العربية الكنعانية.

وجاء لوط مع إبراهيم، فأرسله الله نبيّاً إلى قوم من الكنعانيين كانوا يسكنون في أرض البحر الميت قبل حدوث انخساف الأرض بهم، فبأي لغة أبلغهم رسالة ربّه، ونهاهم عن المنكر، ورغبهم في المعروف، وجادلهم بالحجج والبراهين؟ إنها لغة أهل البلاد العربية الكنعانية؛ لأنَّ الله يُرسل الرُّسُلَ إلى الأقوام بلسانهم؛ ليتفهموا الرسالة.

وعشرات الرسائل التي أرسلها ملوك كنعان إلى فرعون مصر، ثم اكتشفت في «تل العمارنة» كُتبتْ باللغة العربية الكنعانية.. فهل كان في البلاط الفرعوني مترجمون؟ أم أنها لغة مفهومة للجميع؟.

ووصل يوسف إلى بلاد مصر طفلاً، ثم شب وكبر وصار وزيراً للمالية، ثم جاء إخوته يمتارون، وجرى بينهم وبينه حوار، ثم انتقل يعقوب وبنوه إلى مصر، وكان لقاء وحوار وتعبير عن فرحة اللقاء، وتحقق رؤيا يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

لاشكَّ أنهم تحاوروا باللغة العربية العتيقة؛ لأن يعقوب وبنيه لا يجيدون غيرها. ولو كان لأهل مصر لغةٌ غير العربية، لتعلمها يوسف بعد اختلاطه بالناس

(من خادم بالبيت، إلى سجين بين سجناء يفسر لهم أحلامهم، ويدعوهم إلى فعْل الخيرات وعبادة الله الواحد الأحد)، ولكان نسي القليل من اللغة التي حملها في طفولته قبل انتقاله إلى مصر.

وانتقل موسى إلى «مَدْين»، والتقى عند البئر فتاتين، حاورهما، ثم انتقل إلى بيت أبيهما، وكان حوار، وعقْد عمل.. والمعروف أن موسى نشأ طفلاً رضيعاً في البلاط الفرعوني، فلو كانت هناك لغة غير العربية، لتعلمها، فبأي لغة حاور موسى أهل مَدْين؟ إنها العربية العتيقة.

وانتقلت هاجر مع ابنها الطفل الرضيع إلى أرض مكة، وانبجست ماء زمزم بين يديها، فجاءَت قبيلة جُرهم اليمانية، وسكنت في جوار زمزم.. فبأي لغة كان الحوار بين هاجر، والجراهمة؟ لو كانت هناك لغة عربية غير اللغة الكنعانية لغة أهل الشام، لأخذها إسماعيل؛ لأنه شبَّ بين قبيلة جرهم، وتزوج منهم.. إنه لم ينس لغة أجداده كما قال المؤرخون العرب. بل كانت هناك لهجة عربية، تتصل بالكنعانية ـ قد تختلف قليلاً لتباعد المسافات ـ هي التي حذقها إسماعيل، وبها حاورت هاجر جيرانها من الجراهمة. والدليل على وحدة اللغة أو تقاربها بين أهل الشام العرب الكنعانيين: أن إبراهيم عليه السلام بعد أن أسكن ابنه إسماعيل في مكة، جاءَ إلى مكة مرات ليتفقد ابنه، وجاءَ مرّة ومكث طويلاً ليرفع قواعد البيت الحرام مع ابنه إسماعيل.. وفي قصته الصحيحة أنه وصل إلى مكة في بعض رحلاته إليها، وكان ابنه غائباً، وتحاور مع زوجة ابنه الأولى، ثم جاء مرة أخرى وتحاور مع زوجة ابنه الثانية.. والمعروف أن الزوجتين من قبيلة جرهم.. فبأيّ لغة كان الحوار ولم يكن من معجزات إبراهيم أن يفهم لغات الأمم جميعاً؟. إنها لهجة عربية.

لكن كيف وصلت لغة كنعان إلى الجراهمة، وهم يمنيون؟. بل كيف وصلتْ إلى الحجاز، واليمن ونجد؟ هناك احتمالات، قد تكون كلها، وقد يكون بعضها:

منها: التحوّل الاجتماعي من الاستقرار الزراعي، إلى التنقّل الرعوي. وقد ذكرنا سابقاً أن جفافاً حصل في بلاد الشام في زمن قديم، فصار الزُّرَّاعُ رعاةً، وليس

للرعاة وطن، إلا حيث يوجد المرعى، فالكنعانيون الذين كانوا يسكنون النقب من فلسطين، وشمال سيناء، وجنوب الأردن، ارتحلوا بمواشيهم نحو الجنوب، حتى توغلوا في أراضي الحجاز، وربما استقر هؤلاء فيما بعد في تلك المناطق، وكانوا من شعب الحجاز، ونقلوا لغتهم حيثما حلُّوا.

ومنها: الرأي القائل: إن أهل اليمن هاجروا أو هاجر بعضهم في قديم الزمان إلى وادي الرافدين، ثم عادوا إلى وطنهم، يحملون معهم اللغة والكتابة.

قال عباس العقاد في كتابه «أشتات مُجتمعات»: «وقد كانت الحروف المنسوبة إلى الفينيقيين عربية على التحقيق، ولم تكن مقصورة على القبائل الكنعانية في العراق أو فلسطين، ولو لم تكن عربية عامة، لما وجدت بصورها الباقية إلى اليوم في الخطّ المسند، الذي لاشكَّ في قدمه وقدم الحضارة اليمانية بل العروبة اليمانية ـ من قبله ـ؛ فإنَّ الأبجدية المشهورة باسم «الكنعانية»، والأبجدية التي كانت تكتب في بلاد اليمن متشابهتان في أكثر الحروف، وما اختلف منها قليلاً فهو اختلاف في الأداء دون الأصول، ومثله هذا الاختلاف الذي نشاهده بين كتابة المشارقة، وكتابة المغاربة لبعض الحروف العربية إلى اليوم».

والمعروف أن الكنعانيين هم أول مَنْ اخترع الكتابة في العالم أجمع، فكيف وصلت إلى اليمن؟.

ومنها: أن العماليق، وهم فصيل من الكنعانيين، كانوا يسكنون جنوب فلسطين وشمال سيناء، قد امتد نفوذهم إلى الحجاز، وينسب إليهم تأسيس «يثرب» المدينة المنورة.

وفي تاريخ الدولة الآشورية، وكان الآشوريون يتكلمون لهجة عربية عتيقة: أن نفوذهم امتدّ حتى شمل شمال السعودية، إلى مدينة تيماء..

.. فهذه أسباب لوصول اللغة العربية العتيقة إلى قلب الجزيرة، قادمة إليهم من بلاد الشام ووادي الرافدين.

وآخر ما يُقال في هذا الموضوع: إن الحدود الجغرافية[1] التي وضعناها في زمننا هي التي تضيق دائرة البحث: فالمعروف أن الكنعانيين، ومَنْ لفَّ لفهم من الشعوب العربية العتيقة ـ ولا يصح تسميتها البائدة؛ لأنها وُجدت في الأجيال التالية إلى اليوم ـ كانت موجودة في بلاد الشام. . ونحن الذين وضعنا حدود الشام، بأنهما تشمل: الأردن وفلسطين وسورية ولبنان وجزءاً من العراق غربي النهر، والحقيقة أن بلاد الشام تمتدّ حتى تصل إلى مدينة حائل في شمال السعودية.

قال ياقوت: «وأمّا حدّ الشام، فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عرضها، فمن جبلي طيئ من نحو القبلة إلى بحر الروم، وما بشأمة ذلك من البلاد».

(1) والخطأ نفسه وقع في تحديد جزيرة العرب. لقد تتابع على احتلال بلاد الشام أمم غريبة عنه: الفرس، واليونان، والرومان. وقد احتل الروم بلاد الشام حوالي سبع مائة سنة، ولم يبقَ في منأى عن الاحتلال الأجنبي إلا نجد والحجاز وقسم من اليمن، فظنَّ المؤرخون أن بلاد العرب أو جزيرة العرب، هي التي ذكرنا، وسموها «شبه جزيرة». وعندما اكتشف الأثريون آثار العرب الكنعانيين في بلاد الشام، ظنوا أنهم هاجروا إلى الشام من (شبه جزيرة العرب) التي توهموها. والحقيقة أن بلاد الشام كانت جزءاً مقتطعاً من جزيرة العرب، وجاءها المحتلون وقد كان سكانها من العرب، ولم يزل عنها الجنس العربي في جميع القرون التي احتلها فيها الغرباء.